قراءة في مخطوط
" المنهج السديد في شرح كفاية المريد"
لأبي عبدة محمد بن يوسف السنوسي

الأستاذ مرزوق خالد *

الحمد لله الواحد التواب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأوّاب، وعلى الآل والأصحاب ذوي الصدق والصواب، وبعد:

فإن الإيمان بالله تعالى وبما جاء عنه لهُو المحور الأساس في علم العقيدة التي تشكّل قسيما ثالثا من مجموع عناصر البنية الإسلامية، ويمثّل المولّدَ الفعّال لدى الإنسان لكي يقدم إجابات واضحة وقوية عن الأسئلة المركزية التي لطالما شغلته ولاتزال عبر سلسلة الزمن المنتهية به إلى حلقة النهاية، وقد كان من أوكدها محاولةُ فهمه علة وجوده، وما كنه القوة المدبِّرة المؤثرة في وجوده ووظيفته؟ ونحو ذلك مما ليس منه بدّ.

---

* أستاذ مشارك بجامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

وحلّ فلسفة الإيمان عموما يقتضي منهجا علميا رصينا لا مرية فيه، منهجا يُسند العقل إلى النقل من غير تعارض بين الصراحة والصحة في كلٍّ منهما، وتلك قاعدة قرّرها علماؤنا قديما وحديثا وعياً منهم بضرورة العقل وأهميته في إفادة الجزم بوحدانية الخالق وربوبيته سبحانه إلى جانب الأدلة النقلية الصحيحة القاطعة.

ولا شك في أن علماء الجزائر هم من جملة من اضطلعوا بأداء هذا التكليف وتجرّدوا لذلك، فامتازوا ببراعة الاستدلال والتدقيق وفق طرح علمي سديد يقوم على الحجج النيرة والبراهين البينة في سبيل إزاحة اللثام عن الحقائق الإيمانية والسلوكية، وذلك بدحض التلبيسات التي اعترضتها بأفهام كليلة وأبصار عليلة ونظر مدخول، فحرّف الملحدون الكلام عن مواضعه وعدلوا عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن.

وقد اخترت من أبرز هؤلاء الأعلام العلَم المتفنّن الشيخ **أبا عبد الله محمد بن يوسف السنوسي**[1] لتكون لنا نظرات في مؤلَّفه الموسوم بـ" **المنهج السديد في شرح كفاية المريد**"[2] تعريفا به – على القدر الذي يمتد به الجهد والوقت– في صفحات معدودات، إسهاما منا في خدمة متواضعة لخبرات أسلافنا التي ورّثوها لنا وقد نالها من الضعف والقلة في العناية بها ما نالها جمعا وتدوينا ودراسة، ثم استمساكا منا بأصالة الشخصية الجزائرية الممتدة جذورها في التاريخ لاسيما وهي تشعّ نورا وهّاجا للحياة الدينية في البلد بما أبدعه رجاله وأقدروا عليه من

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

السعي في طلب المثل العليا التي من شأنها أن تمكّن من وضع نظام شامل للحياة يتناغم ويتلاءم مع كافة المعطيات.

التعريف بالمخطوط:

هذا الكتاب الذي بين أيدينا " **المنهج السديد في شرح كفاية المريد**" لمؤلفه الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، وهو في الواقع شرح للمنظومة المسماة (بالجزائرية في العقائد الإيمانية) لناظمها الشيخ أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري. فكونه من نتاج علَمين بارزين من أعلام التصوف في الجزائر خلال القرن التاسع الهجري فإن المقام ههنا يستلزم ترجمة موجزة لهما معا:

أولا- ترجمة لعَلَمي المخطوط:

1- التعريف بالناظم رحمه الله:

- **اسمه ومولده ووفاته:**

هو العالم الجليل الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري، ولد سنة 800هـ وتوفي سنة 884هـ، ويعدّ من العلماء الصلحاء ومن أعظمهم اتباعا للسنة، وأكبرهم حالا في الورع، كما يعدّ نظيرا للشيخ عبد الرحمن الثعالبي علما وعملا، واشتهر بإقامة زاوية له بمدينة الجزائر باسمه، خارج السور الغربي لباب الوادي (ناحية قاعة الأطلس حاليا قرب الشاطئ)، وصارت فيما بعد مدفنا لعدد من مشاهير العلماء[3].

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

- **شيوخه وتلامذته:** ذكر الحفناوي من شيوخه:الشيخ عبد الحمن الثعالبي، ومن تلامذته: الشيخ زروق عليهما رحمة الله.
- **آثاره العلمية:**أما إنتاجه الفكري فلم يبق منه إلا المنظومة التي تنيف عن أربعمائة بيت، والتي في أوّلها:

الحمد لله وهو الواحد الأزلـــــي سبحانه جلّ عن شبه وعن مثل
فليس يحصى الذي أولاه من نعم أجلّها نعمة الإيمان بالرســـــل

والثانية: القطعة الشعرية التي نظمها حين وصول شرح الإمام السنوسي إليه لمنظومته المذكورة، وقد أثنى فيه عليه بالعلم والصلاح، وهذا نصها[4]:

شرح الكفاية أيها المتديّـــــــن تحصيلُه فرضٌ عليك معيـــــــنُ
تجلو معانيه القلوبَ من الصــدإ وتنيرها واللفظُ سهلٌ بيـــــــنٌ
ما هو إلا الروض يحسُنُ منظــرا من ذا يرى حسنا ولا يَستحـــسنُ
يا ناظريه وكاسبيه بغبطـــــــة فأعزُّ من ثمن النفيـس المثمـــــنُ
يجزي مؤلفَه الإلهُ بجنـــــــــة دارِ النعيـم بها تَقرُّ الأعيـــــنُ

والثالثة القصيدة التي رثى بها شيخه عبد الحمن الثعالبي، والتي سبق وأن نشر بعض أبياتها في مقدمة كتاب العلوم الفاخرة للشيخ عبد الرحمن الثعالبي في أوائل هذا القرن، ونشرها أيضا أبو القاسم الحفناوي في كتابه[5].

2- التعريف بالشارح رحمه الله:

- **اسمه ونسبه ومولده:**

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

هو العلامة المحقق الشيخ التلمساني محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب، اشتهر بالسنوسي نسبة لقبيلة بالمغرب، الحسني نسبة للحسن بن علي بن أبي طالب من جهة أم أبيه . ولد بعد سنة 830هـ، قدّر بـ 838هـ على نحو ما قاله تلميذه الملالي:" وأخبرني قبل موته بنحو عامين أن سنّه خمس وخمسون سنة"[6]، ونشأ خيّرا مباركا فاضلا زاهدا.

- **شيوخه وتلامذته:**

أخذ عن والده المذكور، والشيخ العلامة نصر الزواوي، والعلامة محمد بن تومرت، والسيد الشريف أبو الحجاج يوسف بن أبي العباس بن محمد الشريف الحسني، أخذ عنه القراءات، وعن العالم المعدل أبي عبد الله الحباك علم الاسطرلاب، وعن الإمام محمد بن العباس الأصول والمنطق، وعن الفقيه الجلاب الفقه، وعن الولي الصالح الكبير الحسن أبركان الراشدي، حضر عنده كثيرا وانتفع به وببركته، وكان يحبه ويؤثره ويدعو له، فحقق الله فيه فراسته ودعوته، وعن الفقيه الحافظ أبي الحسن التالوتي أخيه لأمه (الرسالة)، وعن الإمام الورع الصالح أبي القاسم الكنابشي (إرشاد أبي المعالي) والتوحيد، وعن الإمام الحجة الورع الصالح أبي زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي (الصحيحين)، وغيرهما من كتب الحديث، وأجازه ما يجوز له وعنه، وعن العالم الأجل أبي الحسن القلصادي الأندلسي الفرائض والحساب، وأجازه جميع ما يرويه وغيرهم..، و أخذ عنه ابن صعد، وأبو القاسم الزواوي، وابن أبي مدين، والشيخ يحي بن محمد، وابن الحاج البيدري،

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

وابن العباس الصغير، ومحمد القلعي، وابراهيم الوجديجي، وابن ملوكة والملالي وغيرهم من الفضلاء[7].

منزلته العلمية وفضله:

كون تلمسان حاضرة العلم يحج إليها العلماء مشرقا ومغربا مفيدين ومستفيدين، فقد أتيح للشيخ السنوسي أن يتبوأ مكانة علمية رفيعة، ويصير أحد حذّاق عهده، ويجتمع له من المناقب والمحاسن ما يدفع إلى الانبهار بمواهبه، يصدّق ذلك ما قام به تلميذه أبو عبد الله الملالي وقد جمع أحواله وسيرته وفوائده في تأليف كبير في نحو سبعة عشر كراسا من القالب الكبير سماه " المواهب القدسية في مناقب السنوسية"، وهذا طرف من ذلك، وفيه غنية عن بيان المقصود، قال:"له في العلوم الظاهرة أوفر نصيب، جمع من فروعها وأصولها السهم والتعصيب، لا يتحدث في فن إلا ظن سامعه أنه لا يحسن غيره، سيما التوحيد والمعقول شارك غيره فيها...وانفرد بمعرفته إلى الغاية، وعقائده كافية فيه خصوصا الصغرى لا يعادلها شيء من العقائد...فهو في علوم الباطن قطب رحاها وشمس ضحاها...يؤثر حب مولاه ويراقبه، لا يأنس بأحد، بل يفر كثيرا إلى الخلوات، يطيل الفكرة في معرفته، فانكشفت له عجائب الأسرار، وتجلت له الأبصار فصار من وارثي الأنبياء جامعا بين الشريعة والحقيقة على أكمل وجه...رحيما متبسما في وجه من لقيه مع إقبال وحسن كلام...وضع له من القبول والهيبة والإجلال في القلوب ما لم ينله غيره من علماء عصره وزهاده...وحاله في الدنيا كالمسجون لشدة خوفه ومراقبته كل لحظة.."[8].

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

مؤلفاته:

أما عن آثاره العلمية فلم يفُتْه أن يسجّل حضورَه في مختلف فنون العلم ، فقد ترك مؤلَّفات كثيرة منها تلك التي اشتهر بها في علم العقيدة على وفق مشرب الأشعرية الممتد أمده آنذاك، أشير إلى بعضها فيما يلي:

- (عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتدع عنيد)، والمعروفة أيضا بالعقيدة الكبرى، سار فيها على أسلوب عقيدة الشيخ ابن مرزوق الحفيد، وقد شرحها بنفسه في (عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد)، كما شرحها من علماء الجزائر: ابن مريم في تأليف سماه (كشف اللبس والتعقيد عن عقيدة أهل التوحيد)، والشيخ عبد الرزاق بن حمادوش في كتاب سماه (مباحث الذكرى في شرح العقيدة الكبرى).
- (أم البراهين) المعروفة بالعقيدة الصغرى أو السنوسية، وشرحه لها. كما شرح متنها الشيخ محمد بن إبراهيم الملالي (ت898هـ) ، والشيخ عبد الرزاق حمادوش وسمّاه (الدرر على المختصر).
- (عقيدة أهل التحقيق والتسديد) والمعروفة بالعقيدة الوسطى، وشرحه لها. وشرحها من العلماء: الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتيلاني، وأحمد بن القاسم البوني.
- (عقيدة صغرى الصغرى) الشهيرة بالحفيدة، وشرحه لها، وقام بشرحها الشيخ عيسى بن عبد الرحمن السكتاني.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

- المقدمات المبيّنة لعقيدته الصغرى. وهي مقسمة إلى ثماني وحدات: الحكم، الأفعال، أنواع الشرك، أصول الكفر والبدعة، والموجودات، والممكنات، والصفات، والأمانة، والخيانة. وشرحه لهذه المقدمات.
- (شرح أسماء الله الحسنى).
- (شرح جواهر العلوم) لعضد الدين الإيجي في علم الكلام.
- (الحقائق في تعريفات مصطلحات علماء الكلام).

وزيادة على هذه التصانيف لديه أيضا: شرح إيساغوجي في المنطق، وشرح كتاب البقاعي ومختصره، وفي التَّصوّف شرح الإمام الألبيري، وله في علم الحديث شروح على بعض المسائل في الصّحاح، وفي علوم القرآن له (تفسير القرآن الكريم) ويبدو أنه لم يكمله كما قال أغلب مَن ترجم له، وقال ابن مريم:" كتب منه ثلاثة كراريس في القالب الكبير، إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ ﴾ [9] وأراد التفرُّغ له فما تمكَّن ، وله أيضًا كتاب آخر في التفسير بعنوان: "تفسير سورة ص وما بعدها" ، أمَّا القراءات والضَّبط فله "شرح الشَّاطبية الكبرى"، وكتاب آخر في القراءات "مختصر في القراءات السَّبع"، وغيرها كثير مما لم يكمل، مع ما له من الفتاوى والوصايا والرسائل والمواعظ[10].

– الحالة السياسية والاجتماعية: لنا أن ننقل ما شهد به الشيخ السنوسي بنفسه ليكون كلامه دليلا موضوعيا على نمط الظروف والأحوال التي ميّزت واقع زمانه دينيا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، فقد استغرب فيه– أواخر القرن التاسع– بأن صار المعروف فيه منكرا والمنكر معروفا، وتعذّر فيه معرفة الحق لنذور أهله، واتّسع

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

الخرق فيه جدا على الراقع، فلم يبق فيه للعاقل إلاّ التحصن بالسكوت، وملازمة البيوت، والرضى في معاشه بأدنى القوت.

إن هذا النص قاله الإمام السنوسي عن فترة تاريخية لا غرابة في الأمر إذا قلنا أنها حفلت بأعلام بارزين يستبق بعضهم بعضا العلم، ويتنافسون الفضائل والمنافع، كما هو مبثوث عنهم في تراجم سيرهم ومناقبهم. بل العجب أن تصاب تلمسان وهي ما هي عليه وقتئذ من المكانة العلمية بداء الشلل لتقعد بعد قيام وتحجم بعد إقدام.

فهذه شهادة منه –رحمه الله تعالى– على مشهد عنيف عن واقعه الذي انطبع بفساد عارم اكتسحت شراراتُه الأرجاء، فسُلبت القيم والمبادئ، وعمّت الفوضى، واستشرى الجمود وتوغّل في كيان العالم العربي بشقّيه الشرقي والغربي، وأضحى باب الاجتهاد مسدودا، والتقليد مفتوحا بابُه على مصراعيه لينضوي تحت لوائه العامة من الناس والخاصة في الفقه والعقيدة ونحوهما، ومن ثمّ حتمية غلبة الاختصار والرداءة في التأليف، واضمحلال الإبداع والتجديد في الفكر والمعرفة.

في حقبة كهكذا اضطراب وجمود يعترياها عاش الشيخ السنوسي، حقبة انطوت على تقلّبات سياسية شديدة؛ " فقد أفل نجم دولة الموحدين، وانقسم المغرب العربي إلى دويلات ثلاث: فالمرينيون بفاس، والحفصيون بتونس، والزيانيون بتلمسان، وأضحت هذه الدول في نزاع شديد، وكان هدف كل من الحفصيين في الشرق والمرينيين في الغرب اتلاع الدولة الزيانية، فكثرت الغارات على أطرافها

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

وعلى عاصمتها تلمسان، وبات الاستقرار بها حلما، والأمن معدوما، والحياة الاجتماعية والثقافية تتلون مع الحياة السياسية، فقل الانتاج، واضطربت الحياة الاجتماعية، وانعدمت قوافل التجار الذين يأتون من عدة مناطق، ومال السياسيون إلى الاهتمام بشؤونهم الخاصة، والعلماء إلى الانعزال والزهد، ودأب التشاؤم في نفوس الناس وكسد الفكر وانعدم الإبداع الفني"[11].

ولكن في ظل هذه الأوضاع القاسية التي أحاطت به من كل جانب نجده رحمه الله لم تنفد منه طاقة العزيمة، ولم ينكسف نور عقله، بل تمكّن من الاتصال بشيوخ تلمسان والأخذ عنهم، ودراسة المذاهب والآراء المنتشرة في عصره، كل ذلك لأجل أن يخلق مناخا عقديا جديدا – أشعريا– يتناسب وطبيعة هذه المرحلة، فكان أن تركّزت اهتماماته جلّها حول محاربة التقليد والإهمال الحاصلين في علوم النظر الذي هو بالنسبة إليه من أوائل الواجبات المناطة بالمكلف، وقد أطال الحديث عن هذه المسألة في شروحه، وخاصّة في شرحه على عقيدته الكبرى، وشرحه لأم البراهين، واستدلّ على أهمية النظر بالأدلة النقلية والعقلية، ولاحظ أنّ الطبقة المثقفة أعرضت عنه، إذ لا يزال الفساد في عقائدهم، وإعراضهم عن النظر في أدلة التوحيد وإهمالهم للكثير من مراشدهم.

وبهذا الشكل غدت أعمالُه المرجعيةَ الجديدة للدراسات العقدية بالمغرب العربي، بل أسّست لمرحلة تاريخية من التجديد الفكري، كان الغاية منها بعث العقيدة الأشعرية من جديد، والتي سادت لأمد طويل بالمنطقة، بحيث صارت العقيدة الرسمية التي تدرَّس في المعاهد والزوايا والمساجد، تأكيدا لمبدأ الاقتران

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

الطبيعي بينها وبين الفقه المالكي منذ أن ترسّخت جذوره بالمغرب العربي، وقد وجد أتباع هذه المدرسة متنفسا في كتبه، فانهالوا عليها بالشروح والحواشي مشرقا ومغربا.

- **وفاته:** توفي رحمه الله تعالى يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأخيرة عام خمس وتسعين وثمانمئة (895هـ) ودفن بتلمسان[12].

ثانيا- الاسم الذي أُطلق على الشرح وتوثيق نسبته إلى صاحبه:

سبق وأن ذكرت بأن هذا المخطوط هو عبارة عن شرح للمنظومة المسماة (بالجزائرية)، وتسميته (بالمنهج السديد في شرح كفاية المريد) لمؤلفه الشيخ محمد بن يوسف السنوسي لم يكن محل خلاف، فقد ذكره المؤلف في المقدمة، وهو مثبت في جميع النسخ الثمانية التي اطلع عليها المحقق، وكذلك تاريخ تأليفه الذي ذكره في آخر الشرح فيما نصه:"وكان الفراغ من هذا التأليف المبارك يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شهر شعبان عام ثلاثة وثمانين وثمانمئة هـ "[13]. وهذا قبل وفاة صاحب النظم بسنة.

ولا أدلّ على صحة نسبة هذه التسمية للمؤلف السنوسي من تصريحه البيّن المكشوف الذي لا يدفع في مقدمة الشرح حيث قال:" وسميته بما أشار إليه المؤلف رضي الله تعالى عنه – أي الناظم– من التسمية المباركة المطابقة إن شاء الله تعالى، وهي التسمية (بالمنهج السديد في شرح كفاية المريد). والله تعالى المسؤول أن يخلص لي النية فيه، ويجعله في الآخرة عملا مقبولا"[14].

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

ثالثا- وصف نسخة المخطوط المعتمدة:

اعتمدت في هذه الدراسة على نسخة المخطوط الموقوفة بمصلحة المخطوطات التابعة لدائرة الحفظ والمخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية، لينتفع بها الطلبة والباحثون، وهي تحمل رقم: 2965، ومحمولة في قرص مضغوط بالرمز: b.k.y 494 ، القياس: 212×158 مم، وعدد لوحاتها 243 لوحة، وفي كل لوحة صفحتان سوى بعضها كاللوحة الأولى واللوحة ما قبل اللوحتين الأخيرتين، وفي الصفحة ما بين 23 إلى 30 سطرا أو يزيد أو ينقص، وفي كل سطر زهاء 12 كلمة.

ومن مواصفات هذه النسخة ما يلي:

- نسخة لوحاتها تامة غير منقوصة.
- اللوحات ذوات الأرقام: 241، 242، 243 بيضاء ليس بها نسخ.
- الصفحة الأولى نقل الناسخ فيها ثلاثة أبيات للشيخ أبي مدين رحمه الله تعالى لا غير.
- كتبت بخط مغربي واضح وجيد، قليلة الأخطاء والتصحيف، وقد ازدوج فيها الحبر الأسود وهو الأصل، مع الحبر الأحمر العناوين والكلمات المهمة التي تفيد القارئ بما تدل عليه من دلالات، مثل: (قال الشيخ الامام العالم المحقق المتفنن أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الحسني غفر الله له وعفا عنه بمنه وكرمه)، والكلمات مثل: (الحمد لله)، و(محمد)، و(وبعد)، و(اللهم)، و(قال)...الخ.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

- في حواف بعض اللوحات خروم كاللوحتين الأولى والثالثة على يمين الصفحة الأولى لكل منهما.
- بها حواشي وتقريرات بخط الناسخ في بعض اللوحات مثل: اللوحة الثانية، وقد ورد اسم الناسخ في آخر اللوحة رقم: 240 عند فراغه من النسخ، واسمه: بلقاسم بن حمزة الشريف الخمري.
- ذكر فيها تاريخ الانتهاء من نسخ التأليف وهو عشية يوم السبت حادي والعشرون من شهر ربيع الثاني من عام ثمانية وثمانين وتسعمائة (988هـ)، قال الناسخ –رحمه الله تعالى– في آخر اللوحة رقم: 240:" وكان الفراغ من نسخ هذا التأليف المبارك عشية يوم السبت حادي والعشرون من شهر ربيع الثاني من عام ثمانية وثمانين وتسعمائة رزقنا الله خيره وخير ما بعده على يد عبيد الله تعالى أصغر عبيده المفتقر إليه في جميع أموره بلقاسم بن حمزة الشريف الخمري لطف الله به وغفر له ولوالديه...".
- وضع في بعض الصفحات ختم المكتبة الوطنية الجزائرية كما في الصفحتين الثانية والأخيرة منه.

وللإشارة فقد وصف الأستاذ مصطفى مرزوقي سبع نسخ بالإضافة إلى هذه، إذ اعتمد على أربع منها بالدرجة الأولى في إعداد تحقيقه للكتاب، وبقية النسخ يرجع إليها عند الخلاف بين النسخ المعتمدة، أو التأكد من صحة كلمة غير واضحة فيها[15].

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

رابعا- مظاهر عرض تأليفه: بإجالة النظر في هذا الشرح من مقدمته إلى خاتمته فإنه يمكننا أن نستشف في وصف عرضه نقاطا رئيسة لا يكاد يخلو منها في الغالب الأعم عملُ من يروم شرح نظم ما، تلكم المظاهر المتمثلة في دواعي الشرح والتي تتجلى للقارئ تصريحا أو تلميحا، والمصادر التي هي محل الاقتباس والاستشهاد في سياق الشرح، ثم طرق عرضه له شكلا ومضمونا.

1- دواعي تأليف هذا الشرح:

للإيجاز يحسن بي أن أورد كلام الإمام السنوسي نفسه في المقدمة وهو يوضح فيه شيئا مما استدعاه لذلك، قال:" وقد دعاني إلى شرح هذا النظم المبارك بعثُ مؤلفه رضي الله عنه تعالى بنسخة منه بخطه إليّ، وبمكتوب أرى امتثاله واجبا عليّ، يستدعي فيه مني –حفظه الله تعالى– على سبيل النصيحة والسوق إلى المشاركة في الثواب، أن أضع عليه شرحا يشد عُراه، ويجري على مِنصَّة كمال الظهور محاسن معانيه لمن قصده من الطلاب، فأجبته إلى ذلك طلبا لرضاه ودعائه الصالح، ثم رجاءً للدخول فيمن لا ينقطع عمله الصالح بعد الموت.."[16].

فبيّنٌ من هذا النص أن صناعة الإمام إن هي إلا إجابة عاجلة لمطلوب الناظم إذ بعث بخطه إليه، لكي يتخذ أيسر المسالك وأوضح الأساليب، بعيدا عن التعقيد والتكلّف في عبارات التحليل بما لا يدع مجالا لصعوبة المأخذ أو شعورا بالملل فيزهد في طلبه الدارسون له. هذا من نحو، ومن نحو ثانٍ مأموله في توريث عمل يجري عليه ثواب الله ورضاه بعد انقطاع الأجل، وكفى من جزاء الله له عليه أن رضيه لذلك أهلاً.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

وبالإضافة إلى هذا وذاك، فإن ما ساد في زمانه من انتكاس فكري وانسداد علمي وفساد عقدي وتربوي بين مختلف شرائح مجتمعه مثقفين ومن دونهم –كما أشرنا قبلُ في ترجمته– لهو الضرورة التي ألحّت عليه إفراغ الوسع لتصحيح المفاهيم الخاطئة التي عدّها سبب هذا الاعوجاج الذي مسّ المجال العقدي أكثر.

2ـ المصادر التي اعتمدها الشارح: بعد تتبعي للشرح تبيّن لي أن المؤلف – رحمه الله تعالى– قد تنوّعت لديه المصادر والأصول التي اعتمدها في الاقتباس والاشتشهاد أثناء شرحه لمنظومة الجزائرية، بدءا بالقرآن الكريم مستدلا من كافة السور سوى بضعة منها كإبراهيم، وسبأ، والمزمل وغيرها، وكذا جلّ كتب الحديث؛ الصحاح والسنن والمعاجم والمسانيد، كما اعتمد أبيات الشعر من دواوينه المختلفة، بل حتى التوراة فقد ورد ذكرها، وذلك حين كلامه عن حكم السؤال عن حقيقة الروح الذي كان يرغب فيه اليهود من خلال كفار قريش ليتوجهوا به لنبيّ الله عليه الصلاة والسلام وهم يختبرون منه صدق نبوته[17].

على أن بعض المصادر منها ما يصرح بذكر عناوينها في ثنايا الشرح، ويكتفي في بعضها الآخر بذكر أسماء مؤلفيها فقط، نحو قوله: قال الزمخشري دون ذكر مؤلَّفه – الكشاف– في وقفة عند الآية الحادية عشرة من سورة فصلت لبيان سرعة انقياد الكائنات لقدرة الباري سبحانه[18]. وغير ذلك كثير.

وهذه طائفة يسيرة من جملة المصادر التي ذُكرت عناوينها منسوبة لمؤلفيها، مثل: شرح المصابيح للحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، وشرح عقيدة النسفي لسعد الدين التفتزاني، وأبكار الأفكار لسيف الدين الآمدي، والمدوّنة لابن القاسم،

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

وكتاب المواقف لعضد الدين الإيجي، والتفسير الكبير للفخر الرازي، وتفسير البيضاوي لناصر الدين البيضاوي...

3- منهج المؤلّف في الشرح: أما عن منهج الإمام السنوسي في الشرح فإننا يمكن أن نستبينه بوصف محتوى تأليفه من نحو، وظاهره من نحوٍ ثانٍ، ففي ذلك عون للقارئ على أن يلحظ ملامح الشمولية في علمه وفكره، ومدى امتيازه في التفاعل مع النظم وهو يشرحه ويوضحه، وبراعته في ترتيب ذلك كله ترتيبا منطقيا يتوافق والكتابة وفق المنهجية العلمية المعاصرة.

أ- محتوى المخطوط:

يقتضي عرض محتوى الشرح بيان الموضوعات المطروقة فيه، وكيفية شرحها، وقيمة الاستشهادات المتنوعة التي استعان بها.

أما عِدّةُ الموضوعات فاثنان وثلاثون موضوعا رئيسيا مخرجة في فصول، إلى جانب مقدمة المؤلِّف، وهذه الفصول في مجملها تنشطر قسمين: الأول يتضمن الكلام في عقائد الإيمان وتقريرها بالأدلة البرهانية، والثاني في التصوف، احتوى " خطابات تصوفية تهز النفوس النائمة لتعظيم جناب الحق، ويدخل بها الضعيف مع القوي في سلك الانتظام"[19]، وقد حُصرت فيه مادة **الفصل الأخير** الذي ترجمته: (فصل خُتم به هذا النظم وتم، وإن لم تناسب ما تقدم فقد حوى كلمات تُحمد ولا تُذَم).

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

ونشير إلى أن أبا عبد الله السنوسي مهّد قبل المقدمة **تمهيدا**: بدأه بالحمد والثناء على الله والصلاة والسلام على نبيه، ثم ذكر منزلة وفضل العلم المتعلق بتوحيد الله تعالى وصفاته، ووصف النظم مجملا، ثم دواعي شرحه له.

أما **المقدمة** فاستهلّها بحكم البدء بحمد الله، وأقسامه، والفرق بينه وبين والشكر، مثنيا بفضل الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم بيان حكم تعلم الفرائض الشرعية عقدية وعملية وما يتعلق بها، ليصل في آخرها إلى الدعاء بإخلاص الوجهة إلى الله تعالى.

ويليها **القسم الأول** مفتتَحا **بالفصل الأول**: وقد عنونه بـــ: فصل في بيان حكم التقليد في قواعد التوحيد، إلى أن ينتهي **بالفصل الواحد والثلاثين**: وقد عنونه بـــ: فصل في التحذير من أهل البدع.

ولم يفصّل المؤلف عنوان كل فصل من هذه الفصول باعتباره موضوعا رئيسا إلى عناوين فرعية لكي يسهل الفهم على المطالع لشرحه، بل له أن يلحظها هذا الأخير بنفسه بالقراءة المتأنية مع التركيز والتدقيق، مع أننا نجده يقدّم البيتين أو الثلاثة أو أكثر على حسب الموضوعات الفرعية، ثم يتبعها بالشرح، من ذلك مثلا:

فصل في بيان حكم التقليد في قواعد التوحيد، والذي اشتمل في مجمله على تسعة أبيات، فقد قسّمها أولا إلى أربعة أبيات وشرحها بما تدل عليه من: ذكر مختلف الأقوال في حكم التقليد، وآراء العلماء في إيمان المقلد، وحكم من قلد ظاهر الكتاب والسنة، وثانيا إلى أربعة أبياتٍ الموالية بما تدل عليه من: حكم المقلد الذي

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

يرجع برجوع مقلده في عقيدته، وهل الذبح تعبد أم لا؟، وأما البيت التاسع فأفرده بالشرح فيما تعلق بأن حصول المعرفة فضل من الله تعالى، وذكر الخلاف بين أهل السنة في خلق النظر بدون خلق العلم، ورأي الفلاسفة والمعتزلة في تولد العلم وموجبه.

فقد سار على النسق نفسه في شرحه كله، وأما تخصيص الفصل الأخير بالتصوف وإن لم يناسب ما تقدم المناسبة الخاصة، ففيه إشارة إلى وجود " مناسبة عامة بينهما من حيث أنه تنبيه على بعض ما تثمره معرفة الله تعالى، ومعرفة صدق رسله عليهم الصلاة والسلام لمن تأمل واستبصر"[20]. وختاما أنهي شرحه بخاتمة الدعاء وتاريخ الفراغ من النسخ وقد ذكرناه سالفا في وصف نسخة المخطوط المعتمدة.

ب- من حيث الظاهر (الشكل):

1- إن أول ما ما يلفت انتباه القارئ من حيث الشكل هو أن المؤلف يُتبع الأبيات التي تجمع مسألة عقدية أو مسألتين أو أكثر بالشرح، متفاعلا مع المتن ومستعينا على الشرح بما تيسر له من أصول الاستنباط عامة، ومستفيضا أحيانا في تحليل البيت الواحد لأكثر من ثلاث صفحات، من ذلك مثلا: البيت الأول فيما مفاده بيان وجوب الحمد، وتنزيه الخالق سبحانه عن الشبه والمثل[21].

2- وفي بعض المواضع يفصل بين ترجمة الفصل الذي هو قيد الشرح وبين الأبيات التي تتضمنه بشرح المفردات الصعبة الواردة في عنوان الفصل التي يحتاج القارئ إلى بيان مفهومها أولا، مثل قوله:

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

– فصل في بيان حكم التقليد في قواعد التوحيد؛ يعرّف كلمة (التقليد) أولا، ثم يسرد أربعة أبيات من قول الناظم، ثم يشرحها[22].

– فصل في أن الاختراع لله سبحانه لا لشيء سواه؛ أيضا: يعرّف كلمة (الاختراع) أولا، ثم سرده ستة أبيات تتعلق بالفصل، ويشرحها بعد ذلك[23].

3– شواهده من القرآن أولا، فإن لم يجد فمن السنة، وإن لم يجد فمن كلام اللغة شعرا ونثرا. وأحيانا إذا سنح له المقام يجمع بين هذه الأصول، من ذلك مثلا: استدلاله على أن حمد المنعم وشكره لا يوافيان نعمه الخارجة عن حد الحصر بالآيتين: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[24]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[25] واستشهد في هذا المعنى بما أنشده الطيبي قوله:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتسع العمرُ
فإن مسّ بالنعماء عمّ سرورها وإن مسّ بالضراء عقبها الأجرُ

هذا وقد استشهد بكثرة من كامل سور القرآن إلا بضعة منها كما سبق ذكره، وأما الأحاديث الشريفة فقد قارب بها الثلاثمائة (291 حديثا)؛

- فمرة يحيل في نقلها على كتب السنة، ومرة لا يحيل، مثالُ عدم الإحالة عليها قوله:" ومما يشهد لعدم الترادف قوله عليه الصلاة والسلام: « الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبدٌ لم يحمده» إذ رأس الشيء ليس مرادفا لكله"[26]، أو قوله:" وبقوله:« لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[27] ، ومثالُ ما أحال

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

عليها قوله:" وفي صحيح ابن حبان عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:«أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون»"، وقوله:" وفي الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل:«أنا عند ظن عبدي وأنا معه إذا ذكرني...الخ»"[28].

- وزيادة على إيراده الأحاديث من مظانها فإنه يعمد إلى ذكر رواتها، ونقد أسانيدها وبيان حال رجال السند، والتوثيق بما هو معلوم في علم الجرح والتعديل، فمن ذلك مثلا: قوله بعد أن ذكر الحديث الذي نصّه في فضل ذكر الله تعالى:" أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم في مستدركه من رواية أبي الدرداء. وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد"[29].

4- الإحالة على صنوف الكتب المعتمدة في نقل الأقوال والآراء، وأسماء الأعلام، على تنوع مشاربهم ومستوياتهم وأزمانهم، من جيل الصحابة ومن بعدهم، والأنبياء قبلهم، إن في الفقه أو التفسير أو البلاغة أو الكلام، أو نحو ذلك، وأمثلتها كثيرة، منها: قوله:" ففي كتاب السرقة من المدونة وقد أصغى مالك إلى الاحتلام حين كلمته في الانبات. وقال ابن القاسم..[30]، قال الزمخشري..، وقال البيضاوي في تفسيره..[31]، وقال الخوارج..، وقال الآمدي في أبكار الأفكار..[32]، ويسرد ما قالوا.

5- تقوية الشرح وهو في معرض الاستدلال تارة مستخدما القواعد الأصولية، وتارة أخرى يميل إلى توظيف القواعد النحوية والوجوه البلاغية، وسنوضح بمثال واحد لكل ما أشرنا:

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

- فأما القواعد الأصولية فمنها: قاعدة المقري[33] في كتاب البيوع: (شأن العظيم أن لا يحصل بالطرق السهلة)، أي: أن كل ما هو من معالي الأمور كالتوحيد الذي هو أصل النجاة فإنه لا ينال بالطرق السهلة، بمعنى أن الجنة حفت بالمكاره، فلشرفها في نظر الشرع كثرت شروطها أعلاها طلب القطع في عقائد التوحيد لا الاكتفاء فيها بالظن كما في فروع الشريعة[34].
- وأما قواعد النحو فمثالها: تطبيقات حروف المعاني وما يترتب على التنوع في دلالاتها من اختلاف في المعنى، فقد شرح قول الناظم : (فهاك نظم فصول من قواعده من رام بالنظم حصر الكل لم ينل) بقوله:" لأن من في قوله (من قواعده) للتبعيض.. وعلى هذا فالضمير في قواعده يعود على التوحيد المطلق لا المقيد...وأما إن جعلتها لبيان الجنس..فلك حينئذ أن تعيد الضمير من قواعده على علم التوحيد المقيدبكونه فرضا"[35].
- وفيما يخص الوجوه والأساليب البلاغية فمثالها:حمله التقرب من العبد بالنوافل إلى الله أو من الله بالرضى إلى العبد على الاستعارة التمثيلية، " فاستعيرت العبارة الموضوعة للمشبَّه به في المشبَّه تقريبا للمعاني، وإحضارا للرحمة الإلهية وإبرازا لها في قالب المحسوس المألوف.."[36].

6- الممازجة والمزاوجة في الشرح بين المعاني العقدية والمسائل الفقهية تقريبا وتذليلا لصعوبة الفهم، ومن ذلك قوله:" كالنكاح لما كان سببا للإعفاف، والتناسل..إلى غير ذلك من فوائده شُرط فيه الصداق، والولي،و..بخلاف البيع"[37]

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

7- استثمار بعض الأساليب المتداولة في مقام المحاججة وترجيح الأقوال ودفع بعضها ببعض، كأسلوب (الفنقلة) الذي دأب عليه كثير من المتقدمين في كتبهم، نحو صنيعه في أكثر من موضع في شرحه، مثل قوله:" فإن قلتَ: عطف المؤلِّف المثل على الشبه يلزم منه التكرار؛ لأن الشبه هو المثل. قلتُ: يحتمل أن لا تكرار بأن يكون المؤلف استعمل لفظ الشبه في مطلق المشارك له تعالى"[38].

فبهذا العرض المختصر حُقّ للإمام السنوسي أن يوصف بالعالم الموسوعي عن جدارة، ذالك أنه اصطبغ بتنوع شخصيته العلمية؛ من متكلم، وأصولي، وفقيه، ومحدّث، ونحوي بلاغي، بل ومجدّد في عصره يقضي في النوازل وعويص المستجدات. وليس أقل شهادة على نبوغه من تراثه العلمي الباهر.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image



صورة للوحة الأولى

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image



صورة للوحة الأخيرة

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

الهوامش:

(1) الدافع الأساس في اختياره ليكون مخطوطه الذي نحن بصدده قيد التعريف هو كونه رحمه الله تعالى قد برزت وتمحورت أكثر تآليفه حول المباحث المتعلقة بعلم العقيدة – كما هو بيّنٌ في ترجمته– بغرض منه في الهدم أو التأسيس والبناء وفق مذهب أئمة أهل السنة.

(2) حققه الأستاذ مصطفى مرزوقي، وطبعته دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1994.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1998، ط01، 85/1.

(3) الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ، 34/1.

(4) المصدر السابق،35/1.

(5) المصدر السابق، 184/1.

(6) المصدر السابق، 184/1.

(7) المصدر السابق، 177/1.

(8) سورة البقرة، 05.

(9) المصدر السابق، 184/1-186.

(10) السنوسي، المنهج السديد في شرح كفاية المريد، 16.

(11) تعريف الخلف برجال السلف، 176/1. وتاريخ الجزائر الثقافي، 85/1.

(12) السنوسي، المنهج السديد في شرح كفاية المريد، 584.

(13) المصدر السابق، 23.

(14) المصدر السابق، 18-19.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

(15) المصدر السابق، 22-23.

(16) المنهج السديد في شرح كفاية المريد، 125.

(17) المصدر السابق، 79.

(18) المصدر السابق، 462.

(19) المصدر السابق، 22.

(20) المصدر السابق، 462.

(21) المصدر السابق، من: ص23 إلى ص31.

(22) المصدر السابق، 48.

(23) المصدر السابق، 163.

(24) سورة الصافات، 96.

(25) سورة النحل، 18.

(26) المصدر السابق، 24.

(27) المصدر السابق، 432.

(28) المصدر السابق، 572.

(29) المصدر السابق، 571-572.

(30) المصدر السابق، 38.

(31) المصدر السابق، 125.

(32) المصدر السابق، 39.

(33) أبو عبد الله التلمساني محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن القرشي المقري –الجد–، صنّف كتبا في الفقه والحديث، وولي القضاء بفاس، وتوفي إثر رجوعه من الأندلس

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

في مهمة سنة 759هـ. ينظر: التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، 1398-1989، 420/2.

(34) المصدر السابق، 55.

(35) المصدر السابق، 43.

(36) المصدر السابق، 572. وأيضا: ص33.

(37) المصدر السابق، 56.

(38) المصدر السابق، 29. ومثلا: ص52 وغيرها.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image